

مصطلح المفارقة في التراث العربي

د. شريف عبيدي.

جامعة العربي التبسي - تبسة-

ملخص:

تعدّ المفارقة من المفاهيم الخصبية التي لاقَت اهتماما كبيرا من قبل المبدعين والنقاد، وهذا بسبب مقدرتها على المراوغة والمناقضة، فغالبا ما تكون البنية السطحية في المفارقة تناقض وتضاد البنية العميقة مع وجود قرينة أو مفتاح يكون بمثابة الخيط الذي يعين القارئ على اكتشاف المعنى المقصود، وتهدف هذه الدراسة إلى البحث في التراث عن مصطلح المفارقة والمفاهيم القريبة في الدلالة على هذا المصطلح.

الكلمات المفتاحية: المفارقة - التهم - تجاهل العارف - السخرية - التشبيه.

Résumé

Paradoxalement, la structure superficielle du paradoxe contredit et contraste la structure profonde avec une présomption ou une clé qui sert de fil conducteur qui aide le lecteur à découvrir le sens. Étudiez à la recherche de patrimoine le paradoxe de terme et les concepts proches dans la connotation de ce terme.

تمهيد:

إن المفارقة مصطلح ظهر في الفلسفة الغربية واعتبر "سقراط" (Socrates) واضع أسسها الأول، الذي ابتدع طريقة في التحاور والتخاطب مع محاوريه تعتمد أسلوب المراوغة والتواضع، لتحريك التساؤل عند الأشخاص بغية إرجاعهم لذواتهم قصد إعادة معرفتها ووعيها من جديد، وقد عرف التراث العربي عدة ألفاظ ومصطلحات استخدمها البلاغيون العرب قصد تبيان خصائص وميزات أنماط كتابية كانت سائدة في تلك الفترة.

مصطلح المفارقة في التراث العربي: المفارقة كمصطلح لم يتمّ ذكرها في القرآن الكريم: «ففي القرآن الكريم لا تردُّ كلمة مفارقة»⁽¹⁾، وقد استعملت في التراث العربي صيغ مقاربة لها، فلا نجد

⁽¹⁾ خالد سليمان: المفارقة والأدب، دراسات في النظرية والتطبيق، دار الشروق للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1999، ص 22

"المفارقة" كمصطلح، لكن نجد مفاهيم قريبة من المفاهيم الحديثة والمعاصرة لها: «ألفاظ مثل: السخرية والتهكم والازدراء والغمز وغيرها، ظلت ألفاظاً شائعة، تحمل شيئاً من عناصر المعنى أو دلالاته التي تحمل لفظة "مفارقة" أمّا في الاستعمال الأدبي والبلاغي، فقد استعملت مصطلحات أخرى حملت بدورها شيئاً من دلالة مصطلح المفارقة، مثل: "التعريض التشكك". و"المتشابهات"، و"تجاهل العارف"، و"تأكيد المدح بما يشبه الذم" و"تأكيد الذم بما يشبه المدح"»⁽¹⁾، فالمصطلح بلفظه لم يرد في التراث العربي، لكن كانت هناك ألفاظ دالة على شيء من عناصره متداولة وكثيرة الاستعمال، حيث تعرّض لها البلاغيون العرب وشرحوها ووضعوا لها قواعد وأسس وشروط تبينها، وهذا يدل على ثراء التراث العربي وتنوعه.

والسؤال الذي يطرح في هذه الحالة: هل عدم وجود المفارقة كمصطلح في التراث العربي يؤدي إلى فقدان هذا العنصر أهميته في الدراسات العربية؟ هذا السؤال أجاب عنه "ناصر شبانة" بالنفي: «أما أنا فأقول سواء أكان هذا المصطلح موجوداً أم غير موجود، فإن الأمر سيان، إذ ليس الأمر منوطاً بوجوده أو عدمه، إنما المعوّل على ما إذا كان المفهوم أو النوع البلاغي الذي تُشير إليه المفارقة بمفهومها الحديث موجوداً في التراث أم لا، فمصطلح الرواية مثلاً كان موجوداً في التراث لكنه مطلقاً لم يكن يشير إلى هذا النوع الأدبي الحديث»⁽²⁾، إذن؛ فما يهمنّا هو وجود الشكل أو النوع البلاغي الذي يحيلنا إلى معنى أو معاني المفارقة، فوجود مصطلح الرواية في التراث لم يؤدي إلى المعنى المراد به في مصطلح الرواية الحديثة، لذلك يكون الأفضل هو البحث عن ما يدلّنا إلى مفهوم المفارقة أو يُقربنا إلى هذا المصطلح.

ويعتبر "محمد العبد" أن أقرب مصطلح لللفظة المفارقة في التراث العربي، هو مصطلح "التهكم" حسب ما وجدته في المصادر البلاغية: «وما نجده فيها مقابلاً للمفارقة - استنتاجاً من النماذج المتمثل بها في المضمون العام والمغزى - هو اصطلاح التهكم، وقد ذكره البيانون وعَنوا به إلى حدّ ما. ومن هنا، يجوز لنا القول بأنّ ظاهرة المفارقة، التي يهتم بها اليوم علماء الدلالة والأسلوب، قد عرفت طريقها - على نحو ما - إلى البحث البلاغي العربي القديم، وبعض المباحث اللغوية اليسيرة،

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 22.

⁽²⁾ ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث، أمل دنقل، سعدي يوسف، ومحمود درويش نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2002، ص 29.

تحت مصطلح (التهمك)» (1)، فحسب "محمد العبد" فمصطلح التهمك يحمل في مضمونه شيئاً يسيراً من دلالة المفارقة.

وقد ركزت "نبيلة إبراهيم" في إطار بحثها عن مصطلح المفارقة في التراث العربي على مفهوم "السخرية" واعتبرته الأقرب لمصطلح المفارقة من حيث المعنى وخصوصاً سخرية "الجاحظ": «و"الجاحظ" صانع المفارقة الأول في التراث العربي القديم وإن لم يدرس من هذه الزاوية، بل درس من زاوية فنه الساهر الذي شاء أن يرصد من خلاله ظواهر اجتماعية سلبية، وإذا كانت السخرية تبدو أنها قريبة من المفارقة» (2)، وترى "نبيلة إبراهيم" أن "الجاحظ" هو أول استخدم المفارقة في أعماله، وذلك بالسخرية التي كانت بغرض انتقاد المجتمع في بعض تصرفاته السلبية. التعريض: وهو فهم معنى القول من خلال عرض الكلام: «وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي، فانك إذا قلت لمن نتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: (والله إنني لمحتاج وليس في يدي شيء)، وإني عريان والبرد قد آذاني)، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم» (3)، فهو لا يكون طلباً مباشراً وإنما نفهم من خلال إشارات دالة عليه في الكلام، فهو لا يأخذ معنى التصريح: «وفي التعريض مزيد إخفاء يجعله أكثر قولاً حينما يكون التصريح مثيراً لغضب، أو نقد، أو اتهام، أو عدل، وتلويم، أو يكشف أمراً يجب ستره عن الرُّقباء، فيقوم التعريض مقام الألغاز والرمز الخفي، وقد يكون التعريض بضرب الأمثال وذكر الألغاز في جملة المقال» (4)، فهو يعتمد الإخفاء وعدم المجاهرة لمنع حدوث ملامة أو غضب، فيكون القول مدعوماً برمز أو لغز لتأدية المعنى المقصود.

ونجد التعريض في قوله تعالى: (فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا

(1) محمد العبد: المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط2، 2006، ص20.

(2) نبيلة إبراهيم: فن القص، في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، (د.ط)، (د.ت)، ص209.

(3) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تر: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ج: 3، (د.ط)، (د.ت)، ص56.

(4) نعمان عبد السميع متولي: المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم، دراسة تطبيقية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، (د.ط)، 2014، ص69.

يَفْقَهُونَ (1)، وجاء التعريض هنا في قوله: (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا) إنه: «لم يقصد منها إعلام المنافقين المخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك بأن نار جهنم أشد حرا من حرارة الفصل الصيفي الذي خرج فيه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون إلى غزوة تبوك، فهذا أمر واضح، لكن المقصود بالتعريض بأن هؤلاء المنافقين هم من أهل جهنم التي تكويهم بحرّها يوم الدين» (2)، فقصدية هذه الآية عدم إخبار المنافقين بحر نار جهنم، إنما المراد التعريض بأنهم سيصلون نار جهنم لا محالة، والتي سيكون حرّها أشد من حرارة الصيف، فجاءت الآية تبيّن أن حرارة نارها أقوى وأشد، هل هي تخبرهم عنها فقط؟ لا بل تبليغهم بأنهم من أهلها، والحر هناك أكثر درجة.

ونجد التعريض كذلك في قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (قَالُوا أَأَتَتْ فَأَعَلَتْ هَذَا بَالِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63)) (3)، والمعروف أن إبراهيم عليه السلام حطم الأصنام التي كان يعبدها قومه ولما سألوه كانت إجابته متهمّة ساخرة بأن اسألوا الكبير فيهم: «والقول فيه أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقديره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه، من إلزام الحجّة عليهم والاستهزاء بهم، وقد يقال في غير ما أشارت إليه، وهو أن كبير الأصنام غضب أن تُعبد معه هذه الصغار فكسرها وغرض إبراهيم من ذلك أنه لا يجوز أن يُعبد مع الله تعالى من هو دونه مخلوق من مخلوقاته، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالا لما أراد» (4)، فقصد إبراهيم عليه السلام ليس اتّهام كبير الأصنام بتخطيم الصغار، بل تعريض على أنه هو الفاعل، وفي نفس الوقت استهزاء بهم وما يعبدونه من دون الله.

وهذا العنصر مهم في التراث العربي وقد استخدمه المبدعون العرب: «ومّا ورد في هذا الباب شعراً قول الشّميذر الحارثي:

بني عمنّا لا تذكروا الشعر بعدما

دفتّم بصحراء الغمير القوافيا.

(1) سورة التوبة: الآية 81.

(2) نعمان عبد السميع متولي: المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم، ص 70.

(3) سورة الأنبياء: الآية: 62، 63.

(4) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تر: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج 3، ص 72.

وليس قصده هاهنا الشعر، بل قصده ما جرى لهم في هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة إلا أنه لم يذكر ذلك، بل ذكر الشعر، وجعله تعريضاً لما قصده، أي لا تفتخروا بعد تلك الواقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان» (1)، والشاعر لم يرد الإفصاح المباشر عن حقيقة ما يريد تبليغه، بل جعله تعريضاً بذكر الشعر؛ أي نحن قننا بالعمل المطلوب وانتهى الأمر هناك، فلا حاجة لكثرة المفاخرة والمساجلة.

وهذا الباب يقترب من المفارقة في عدم التصريح المباشر بالمعنى، وترك القارئ أو المتلقي يفهمه ضمناً من خلال النص.

التهكم: هو فنّ من فنون البلاغة: «يُقال تهكّمت البئر إذا تهدمت وتهكّم عليه اشتدّ غضبه، والمتهم المتكبر» (2)، وهو يعني استخدام قول نقيض مقصده: «وهو في الاستعمال عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء» (3)، فنلمس فيه عنصر الضدية أي اللفظ وضده، فهو يوصل الفكرة عن طريق استخدام اللفظ فيما المقصود هو نقيضه. يقول الله تعالى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (4)، فقد أوردت هذه الآية المدح والمقصود هو الذم والاستهزاء وقد قيلت في أبي جهل الذي رأى نفسه في مكان عظيم: «وأحسب أن أول من نطق بالتهكم في شعره امرؤ القيس، حيث يقول (متقارب):

فأنشب أظفاره في النساء فقلت هبّلت ألا تبصر

فإن قوله للشور هبّلت ألا تبصر من التهكم اللطيف» (5)، وفي هذا البيت يتهم "امرؤ القيس" بالشور ويستهزئ بانتصار الكلب عليه ونشب أظفاره في عرق النساء.

ويقترب التهكم كثيراً من مفهوم المفارقة، خاصة في عنصر الضدية الذي يشتركان فيه إلى حد بعيد: «وإذا كنا أثّرنا في هذا البحث اصطلاح "المفارقة" فذلك أنه أخصّ من التهكم في اشتراط

(1) المرجع نفسه، ص 74، 75.

(2) ابن أبي الأصبع المصري: تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، تح: حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (د.ط)، (د.ت)، ص 568.

(3) ابن أبي الأصبع المصري: تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، ص 568.

(4) سورة الدخان: الآية 49.

(5) ابن أبي الأصبع المصري: تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، ص 568.

عنصر الضدية، الذي يخلو منه التهم في حالات متنوعة»⁽¹⁾، فعنصر الضدية قد يخلو منه التهم، لكنه شرط أساسي في المفارقة.

ويذهب "ناصر شبانة" إلى أن التهم هو هدف من أهداف المفارقة: «وهذه البنية الضدية قد تثير شيئاً من التهم: وقد تحقق هدفاً آخر، فالتهم يُمسي هدفاً من أهداف المفارقة، وأداة من أدواتها وليس كل تهم ناتجة من بنية مفارقة، ولا كل بنية مفارقة عليها أن تثير تهماً، غير أن الذي يهم هو أن أمثلة التهم عند بلاغينا تصلح الآن بامتياز لتكون أمثلة على المفارقة»⁽²⁾، فالتهم عنده أداة من أدوات المفارقة بشرط أن يحمل أبنية متضادة قريبة من المفارقة.

تجاهل العارف: يكون بطرح سؤال يكون سائله عارفاً بالإجابة: « وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه، ليُخرج كلامه مخرج المدح أو الذم، أو ليدلّ على شدة التدلّ في الحب، أو لقصد التعجب، أو التقرير، أو التوبيخ»⁽³⁾.

وهو يدل على أن الشخص يدعي الجهل في سؤال الآخرين عن أشياء يعلمها وهو أقرب "للمفارقة السقراطية": «فإنه أقرب ما يكون إلى المصطلح الغربي "Socratic Irony" (المفارقة السقراطية)، حيث كان "سقراط"، كما ذكرنا، يتبنّى في محاوراته صورة الرجل الذي يدّعي الجهل بأشياء لا يفتأ يسأل الآخرين عنها، بهدف إثارة الشكوك لديهم فيما ظنوا يعتقدون به»⁽⁴⁾،

فتجاهل العارف قريب من مصطلح "المفارقة السقراطية" في التظاهر بالجهل وعدم المعرفة بالحقائق. ونجد في القرآن أمثلة كثيرة عن تجاهل العارف، منها قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) ⁽⁵⁾، فهنا الله سبحانه وتعالى يعلم أن عيسى بن مريم، لم يقل للناس أني وأمّي إلهين.

ومن الشعر نجد: «قول "البوصيري":

أمن تذكّر جيران بذي سلم

(1) محمد العبد: المفارقة القرآنية، ص 22.

(2) ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث، ص 32.

(3) ابن أبي الأصبع المصري: تحرير التحيير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، تح: حنفي محمد شرف، ص 135.

(4) خالد سليمان: المفارقة والأدب، ص 23.

(5) سورة المائدة: الآية 116.

مرجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

وأومض البرق في الظلماء من إضم

يريد تأكيد بكائه المختلط بالدم، بطرح تشكيكه في الأسباب الداعية إلى ذلك، أهي تذكر، أم الريح التي هبت من أرض محبوبة، أم البرق الذي أومض من جهتها، وهو عارف بأن السبب هو التذكر⁽¹⁾، والشاعر هنا يعلم سبب بكائه، وهو يحاور نفسه بطرح أسئلة يعرف إجابتها كأنه اعتمد آليات "المفارقة السقراطية" في حوار، فتجاهل العارف فن يقترب كثيرا من المفارقة السقراطية.

تأكيد المدح بما يشبه الذم: وهو لون من ألوان البلاغة وينقسم إلى قسمين أما الأول: «أن يُستثنى من صفة ذمّ منفية صفة مدح، بتقدير دخول صفة المدح المستثناة في صفة الذم المنفية»⁽²⁾، والاستثناء هنا يقع في باب المبالغة في المدح: «كقول "النابعة": ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قراع الكائب.

فالعيب صفة ذمّ منفية، استثنى منها صفة مدح، وهي أن سيوفهم ذات فلول إن كانت عيبا، وكون الشجاعة عيباً محال، فيكون ثبوت العيب لهم محالا»⁽³⁾، نلاحظ في هذا البيت أن نفي العيب متبوع باستثناء ثم نجد صفة مدح أخرى، ألا وهي أن الفلول في السيوف إن دلت تدل على القوة والبأس والشجاعة، والاستثناء هنا جاء للمبالغة في المدح، والمتلقي حينما يصل إلى الاستثناء في البيت (غير) يتبادر إلى ذهنه مباشرة أن هناك ذمّا لكنه يدرك أن المقصود هو المدح، فقصدية الشاعر هنا هي المدح: «الأصل في مطلق الاستثناء الاتصال، أي يكون المستثنى منه بحيث يدخل فيه المستثنى، فإذا تلفظ المتكلم بأداة الاستثناء دار في خلد السامع - قبل النطق بما بعدها- أن الآتي مُستثنى من المدح السابق وأنه يريد إثبات شيء من الذم،

(1) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ج:1، ط1، 1996، ص518.

(2) عبد الفتاح لاشين: البدیع فی ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1999، ص86.

(3) المرجع نفسه، ص86.

وهذا ذم، فإذا أتت بعدها صفة مدح، تأكّد المدح لكونه مدحاً على مدح» (1)، فسارت الأمور عكس توقع المتلقي وهذا الباب قريب الشبه بالمفارقة؛ حيث أن النص أو القول يوحى بمعنى متوقع لكن يتغيّر إلى الضد أو العكس.

ونجد تأكيداً للمدح بما يشبه الذم في قوله تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ) (2)، وجاءت هذه الآية كردّ على أهل الكتاب، حيث أن المسلمين إذا تمسّكوا بدينهم فهذا ليس نقصاناً أو عيباً بل هو مدح، لأن الإيمان هو مفخرة المسلم وبه يعتزّ.

أما القسم الثاني: «وهو أن يثبت لشيء صفة مدح، وتُعقّب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى، وذلك نحو قول الرسول p: (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش) وصف نفسه بصفة من صفات الكمال، وهي الأفصحية فالإتيان بأداة الاستثناء بعدها، مشعر بأنه أراد إثبات وصف بعدها مخالف لما قبلها، فلما أثبت أنه من قريش، وقريش أفصح العرب، كان ذلك تأكيداً للمدح بأسلوب ألف الناس سماعه في الذم» (3)، في هذا الحديث يظنّ السامع أن هناك ذمّاً بعد المدح: (أنا أفصح العرب)، فدخل الاستثناء هنا مباشرة بعد هذا القول يُحيل إلى ذهن السامع أنه سيتلقى ذمّاً، لكن النقيض هو الذي حصل في قوله: (بيد أني من قريش)، أي أضاف مدحاً آخر فكسر أفق توقع المتلقي الذي تصوّر معنى ورسمه في ذهنه، فحصل نقيضه حيث كان ينتظر بعد الاستثناء ذمّاً.

وهذا الباب قريب الشبه بالمفارقة في خيبة توقع المتلقي، أو المراقب للنصوص أو الأحداث وتحولها إلى الضد في مواقف كان يُحيل فيها المعنى الأول إلى معنى آخر يرسم في ذهن المتلقي، لكن سير الأحداث تكسر هذا التوقع، ومن ذلك قوله تعالى: (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) (4)، ففي هذه الآية يبرز الله تعالى النعم التي ينعم بها المسلمون في الجنة، فالاستثناء جاء هنا ليضيف نعمة أخرى.

يقول "الجعدي":

(1) المرجع نفسه، ص 87.

(2) سورة المائدة: الآية 59.

(3) عبد الفتاح لاشين: البدیع فی ضوء أساليب القرآن، ص 88.

(4) سورة الواقعة: الآية 25، 26.

فتى تمّ فيه ما يسرّ صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا⁽¹⁾.

وهذا البيت يصف فتى ويخصّه بمدح حسن صفاته التي سرّت صديقه، وفي نفس الوقت لن يجد الأعداء عنده ما يسرّهم، فهو شديد على الأعداء أو كل من يريد أن يمسه بسوء.

تأكيد الذم بما يشبه المدح: ويذهب "القزويني" إلى تقسيمه إلى قسمين: «تأكيد الذم بما يشبه المدح وهو ضربان أحدهما: أن يُستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم، بتقدير دخولها فيها، كقوله: فلان لا خير فيه إلا أنه يُسيء إلى من أحسن إليه، وثانيهما أن يثبت للشيء صفة ذم وتُعقب بأداة استثناء، تليها صفة ذم أخرى له، كقولك: فلان فاسق إلا أنه جاهل»⁽²⁾، الضرب الأول يُستثنى الذم من المدح ففي قوله: (فلان لا خير فيه) نفينا صفة المدح: أي فهو ذمّ، ثم أضفنا لها صفة ذم أخرى: (يسيء إلى من أحسن إليه) فهما صفتا ذم.

يقول "المتنبي":

فيا ابن كروس يا نصف أعمى وإن تفخر فيا نصف البصير⁽³⁾.

وهذا البيت مثال معبر عن تأكيد الذم بما يشبه المدح، فالشطر الأول منه يحمل صفة ذم وهي نصف أعمى، والشطر الثاني يريد أن يخبره حتى وإن افتخرت فنصف بصير لأن "ابن كروس" أعور.

الهزل الذي يراد به الجد: عندما يريد بعض الأشخاص إيصال فكرة معينة إلى فرد أو جماعة، ويكون مقصد هذه الفكرة النقد أو اللوم فإنهم يُدخلونها باب المزاح والهزل: «يتلطف الأذكاء فيعبرون عما هم جادون فيه بعبارات مزاح وهزل خشية إثارة من يقصدونه بالخطاب، وليتأتى لهم التّصل مما قالوا، بأنهم يمزحون أو يهزلون وإنهم غير جادّين»⁽⁴⁾، حيث يكون القول لطيفاً لا يترك أثراً نفسياً سيئاً في المخاطب، وفي نفس الوقت هناك إمكانية سحب القول إذا لم يكن وقعه مناسباً: «هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه، فيخرج ذلك المقصود مخرج الهزل المعجب، والمجون المطرب،

(1) النابغة الجعدي: الديوان، تح: واضح الصمد، دار صادر، لبنان، ط 1، 1998، ص 188.

(2) جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد الرحمان البرقوقي، دار الفكر العربي، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 382.

(3) عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1982، ص 248.

(4) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ج:2، ط 1، 1996، ص 398.

كما فعل أصحاب النوادر مثل: أشعب وأبي دلالة وأبي العيناء، ومزبد، ومن سلك سبيلهم»⁽¹⁾، فيكون الكلام مُغلّفاً بهزل جذّاب يُطرب المخاطب، ولا يجعله يتأثر بالقول خاصة إذا كان ذمّاً: «وهو فن واسع جداً يعتمد عليه التمثيل الهزلي الذي يتضمّن ألواناً كثيرة من النقد التوجيهي البناء لأفراد أو مجتمعات، والنقد اللاذع الجارح أحياناً»⁽²⁾، ومن أمثلة ذلك أن "أشعب" حضر وليمة ختان وكان صاحبها واليا بخيلاً: «كما حكي عن "أشعب" أنه حضر إغذاراً صنعه بعض ولاية المدينة، وكان مبخلاً: فدعا الناس ثلاثة أيام وهو يجمعهم على مائدة عليها جدي مشوي، فيحوم الناس حوله، ولا يمسه منهم أحد لعلهم يخله، و"أشعب" في كل يوم يحضر ويرى الجدي، فقال في اليوم الثالث: زوجته طالق إن لم يكن عمر هذا الجدي بعد أن ذُبِح وشُوي أطول منه قبل ذلك»⁽³⁾، هنا جاء الكلام جدّ في قالب هزل، فالظاهر فيه هزل لكن باطنه جدّ، وهنا نلمس خاصية من خصائص المفارقة التي تعتمد على كَوْن النص أو القول يحمل معنيين: (معنى ظاهر، ومعنى باطن)، مع اشتراط التضاد بينهما، ومثال ذلك قوله p لعجوز تسأل عن دخول الجنة: (لا يدخل الجنة عجوز)⁽⁴⁾، فهذا الحديث يتضمن معنيين؛ فالمعنى الأول يوضح لنا أن العجائز لا يدخلن الجنة، أما المعنى الثاني فهو أن العجائز يُعدن شباباً: «والعجوز التي بكت حين سمعت العبارة هي ضحية هذا النوع من المفارقة، لأنها حملت العبارة على محمل الجدّ واكتفت في تفسيرها بالبنية الدلالية الظاهرة، فاستقر في روعها أن لن يدخل الجنة من كان عجوزاً في الدنيا، أما المراقب، أو القارئ الذي يقوم بإعادة إنتاج الدلالة في سياق من الهزل الذي يراد به الجدّ، فإنه سيصل إلى الدلالة الأبعد، وهي أن كل عجوز لا بد أن يعود شاباً في الجنة، وبالتالي فلا يدخل الجنة عجوز، وهذا القارئ سترسم على شفّتيه ابتسامة بدلاً من البكاء، كما حدث للضحية»⁽⁵⁾، فقد وقعت هذه العجوز ضحية المفارقة، في أخذها للدلالة المباشرة للحديث دون النظر في الدلالة الأبعد وهي أن العجوز يعود شاباً.

(1) ابن أبي الأصعب المصري: تحرير التحرير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، ص 138.

(2) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ج 2، ص 398.

(3) ابن أبي الأصعب المصري: تحرير التحرير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، ص 398.

(4) محمد ناصر الألباني: غاية المرام في تخرّيج أحاديث الحلال والحرام، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، ط 1، 1980،

ص 215.

(5) ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث، ص 45.

المقابلة: وهي: «أن يؤتي بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب والمراد بالتوافق خلاف التقابل، نحو: (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا)⁽¹⁾، وفي هذه الآية مقابلة بين معنيين: الضحك القليل والبكاء الكثير، وهذا الضحك يكون في الدنيا أما البكاء فإنه في الآخرة حسب الآية، أي مهما ضحكوا الآن فإنه قليل بالنسبة للآخرة، لأن البكاء فيها مستمر وغير منقطع، وهنا تضاد بين المعنى الأول والمعنى الثاني»⁽²⁾.

وقد تكون المقابلة ثلاثة معانٍ بثلاثة معانٍ أو أكثر من ذلك مثل قوله تعالى: (يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)⁽³⁾، وهنا المقابلة بين قوله: (وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)؛ أي منع كل خبيث عنهم - المؤمنين-، وجاءت المقابلة بين طرفين تقابل فيهما المعنى وتناقض: «ومن الحسن المطبوع الذي ليس بمتكلف قول "علي رضي الله عنه" "لعثمان رضي الله عنه": "إن الحق ثقيل مريء والباطل خفيف وبيء وأنت رجل إن صدقت سخطت، وإن كذبت رضيت"، فقابل الحق بالباطل، والثقل المريء بالخفيف بالوبي، والصدق بالكذب، والسخط بالرضا، وهذه نحس مقابلات في هذه الكلمات القصار»⁽⁴⁾، نلاحظ في هذا القول كيف قابل بين كل كلمة وضدها، ويكثر هذا النوع في الشعر: «مثال ذلك ما أشده "قدامه" لبعض الشعراء: فيا عجا كيف اتفقنا، فناصح

وفي، ومطوي على الغلّ غادر؟

فقابل بين النصح والوفاء بالغل والغدر، وهكذا يجب أن تكون المقابلة الصحيحة»⁽⁵⁾. والمقابلة تتوافق مع المفارقة في كيفية وشكل التغيير الذي يبنى على الضدية والتناقض، فأوجه الشبه في هذا الجانب متقاربة.

التورية: وهي تعني عدم إظهار المدلول المخفي في الكلام، وعدم التصريح المباشر به: «التورية أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان على سبيل الحقيقة، أو على سبيل الحقيقة والمجاز، أحدهما ظاهر قريب

(1) سورة التوبة: الآية 82.

(2) جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة، ص 352.

(3) سورة الأعراف، الآية 157.

(4) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 3، ص 145.

(5) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج: 2، ط 5، 1982، ص 15.

يتبادر إلى الذهن وهو غير مراد والآخر بعيد فيه نوع خفاء وهو المعنى المراد، لكن يورى عنه بالمعنى القريب ليسبق الذهن إليه ويتوهمه قبل التأمل، وبعد التأمل بتبينه المتلقي فيُدرك المعنى الآخر المراد» (1)، فالقول هنا فيه معنيين معنى قريب يوهم المتلقي، وبعد التأمل يتم الوصول إلى المعنى البعيد، وهو المراد: «من أمثلة التورية قول "نصير الدين الحامي":
آيات شعرك كالقصور

ولا قصور بها يعوق

ومن العجائب لفظها

حرّ ومعناها رقيق

فلكلمة رقيق معنيان: الأول قريب متبادر وهو العبد المملوك، وسبب تبادره إلى الذهن ما سبقه من كلمة حرّ، والثاني بعيد وهو اللطيف السهل أو الشفاف، وهذا هو المعنى الذي يريده الشاعر بعد أن ستره في ظل المعنى القريب» (2)، التورية هنا واردة في المعنى القريب أو الظاهر الذي يحيلنا إلى العبد لكن المعنى المراد هو السهل: «هي مفارقة لما فيها من الخفاء والتجلي، وما فيها من تضاد بين ما هو قريب متبادر للذهن، وبين ما هو بعيد غير ملتفت إليه، ولأن البعيد هو المراد المقصود، وما يتطلب الوصول إليه من كدّ للعقل وإعمال للذهن حتى يُدرك المعنى المطلوب» (3).

والمفارقة هنا تقع في الجدل الموجود بين الطرفين، أي المعنى الظاهر والمعنى الخفي، والأسلوب المراوغ للغة: «كقول لصالح الصفدي:

وصاحب لما أتاها الغنى تاه ونفس المرء طمّاحة

وقيل هل أبصرت من يدا تشكرها قلت ولا راحة

فالراحة معنيان: قريباً وهو الكف، وهو المتبادر بقريّة ذكر اليد، وبعيد مراد وهو ضد التعب» (4)، في هذه التورية قريّة اليد التي أحالتنا على الكف، وهو المعنى القريب، والمعنى البعيد المقصود هو التعب، حيث يكون المتلقي في حالة تأمل وتمعن لكشف المخبوء داخل هذا القول.

(1) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ج 2، ص 373.

(2) نعمان عبد السميع متولي: المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم، ص 43.

(3) المرجع نفسه، ص 43.

(4) أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1993، ص 327.

وبرغم كل هذا التقارب بين التورية والمفارقة، من حيث طبيعة اللغة المراوغة فيها والمعنيين: "المعنى الظاهر والمعنى الخفي"، إلا أنهما لا يتطابقان: «وإذا كانت التورية تقترب من شبهتها المفارقة في هذه اللغة المراوغة وفي ازدواجية المحمولات، وفي الموقف من القارئ ودوره في عملية القراءة فإنها تختلف عنها في عدم اشتراطها ضدية المعنيين البعيد والقريب وفي كونها متحققة في مفردة بذاتها لا في السياق اللغوي أو البنية اللغوية كاملة»⁽¹⁾، نقطة الاختلاف بينهما هو عدم شرط الضدية بين المعنى الظاهر والمعنى الخفي في التورية، وهو ما تشترطه المفارقة لقيامها. التشبيه: وهو فنّ من فنون البلاغة العربية: «ولا يخفى على دارس التشبيه أن له أركاناً أربعة، وهما طرفان: الأول المشبه، والثاني المشبه به، وما تبقى هما: الوجه والأداة»⁽²⁾، والتشبيه من ألوان البلاغة التي يستخدمها الشاعر أو الأديب ليعطي نصه بُعداً جمالياً، ويوصل فكرته بطريقة جميلة، وله أثر بالغ في النفس: «وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أؤكد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه»⁽³⁾.

ولا يشترط في الصفات المشتركة بين المشبه والمشبه به أن تكون حدّ التطابق: «التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أن قولهم "خذ كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه، وخضرة كائمه»⁽⁴⁾، نلاحظ التشبيه واضحاً في هذه الآية الكريمة: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)⁽⁵⁾، حيث أن عبدة الأوثان الذين يأملون نصرها لهم وهي في

(1) ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث، ص 35.

(2) محمد بركات حمدي أبو علي: البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار النشر للطباعة والنشر، الأردن، ط1، 1992، ص37.

(3) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دائرة نهضة مصر للطبع والنشر، مصر، ج:2، ص 123.

(4) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ج: 1، ط5، 1981، ص 286.

(5) سورة العنكبوت، الآية: 42

الضعف كبيت العنكبوت. أي أن الله تعالى شبه ضعفهم بضعف بيت العنكبوت وهو بيت واهن لا يقي صاحبه، وكذلك الأوثان لا تنفع نفسها فما بالك بنفع الناس.

وهناك تشبيهات كثيرة في الشعر العربي، استخدمها الشعراء للتعبير عن مقاصدهم بطريقة تجذب السامع أو القارئ: «ثم نورد شيئاً من غرائب التشبيهات وبدائعها، ليكون مادة لمن يريد العمل برسمنا في هذا الكتاب، فمن بديع التشبيه قول "امرؤ القيس":

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا

لدى وكرها العناب والحشف البالي.

فشبه شيتين بشيتين مفصلاً: الرطب بالعناب، واليابس بالحشف، فجاء في غاية الجودة» (1)، ويورد لنا "أبو هلال العسكري" هنا بيتاً "لامرئ القيس" فيه تشبيه فصل فيه الشاعر فشبه قلوب الطير الرطبة بالعناب (تمر أحمر اللون)، وشبه قلوب الطير اليابسة بالحشف (التمر الرديء).

وللتشبيه عدة فوائد في مجالات استخدامه كالمدح والفخر والوعظ: «وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر وأبلغ في التنبيه والزجر وأجدر بأن يُجلى الغاية ويُبصر الغاية، ويُبَرِّئ العليل ويُشفي الغليل، وهكذا الحكم إذا استقرت فنون القول وضروبه، وتبعت أبوابه وشعوبه، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول "البحثري":

دان على أيدي العفاة وشاسع عن كل ندّ في الندى وضريب

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه للعصبة السارين جدّ قريب» (2)، الشاعر هنا

وصف ممدوحه وشبهه بالبدر، حيث جمع في تشبيهه بين ضدّين وهما البعد والقرب. ويقترب التشبيه في بعض خصائصه بالمفارقة، من حيث اعتمادها على البنى اللغوية تعاملًا يجذب المتلقي، ويدعوه إلى تأمل النفس أو القول لإدراك المعنى والوصول إليه.

الاستعارة: وهي فن قولي يتطلب منا التأمل والنظر في القول للوصول للمعنى المراد تبليغه: «فلاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه عليه، تريد أن تقول: "رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه

(1) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 249، 250.

(2) جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة، ص 239.

سواء"، فتدع ذلك وتقول: "رأيت أسداً"⁽¹⁾، وحين تقول: رأيت أسداً، فهذا القول له وجهان، إما أنك رأيت أسداً حقيقة، أو أنك رأيت رجلاً فيه صفات الأسد من شجاعة وقوة، فالاستعارة تطلب إلينا أن نتمعن القول لنصل إلى المقصد: «ولهذا فإنّ الإفادة من الاستعارة تعلو بما يحوطها من كلام تقدّم عليها أو تأخر عنها، أو أنها كانت بداية وتلاها كلام. أو كانت نهاية وسبقها كلام، ولا ينبئ عن هذا المعنى الاستعاري المفيد إلا اللفظ»⁽²⁾، فيجب تتبع الألفاظ في القول دون غفلة حتى نتمكن من إدراك الاستعارة. ونجد الاستعارة في قوله تعالى: (وَأَيُّ لَيْلٍ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ)⁽³⁾،

فلاحظ هنا أن السلخ هو في الأصل للحيوان (سلخ الجلد)، واستُعيرت اللفظة لإبراز قدرة الله تعالى في تتابع الليل والنهار وتعاقبهما.

والاستعارة قريبة من المفارقة حيث أن صانع المفارقة أو صانع الاستعارة يجب عليه عدم الإيغال في الغموض، وذلك لتسهيل مهمة القارئ لفك القول والوصول للمعنى، لذلك وجب وجود قرينة أو مؤشّر يحث القارئ على القراءة الثانية إلى غاية فهم المقصود: «فن الخفاء ما يُفْضِي إلى التعمية والإلغاز. بسبب عدم ظهوره في المشبه به أو في المشبه (وجه الشبه)، أو بسبب اتجاه البلغاء لاختيار وصف من أوصاف المشبه به، ليكون هو وجه الشبه في استعاراتهم وتشبيهاتهم، ككون الأسد شجاعاً مقداماً، دون كونه أبخر ذا رائحة منفرة، وككون البدر جميلاً منيراً، دون كونه كوكباً مؤلفاً من جبال ووديان وصحاري وعناصر مشابهة لعناصر الأرض»⁽⁴⁾، وجب في الاستعارة شرط تبيان وجه الشبه، وذلك ليسهل الوصول إلى المعنى وتكون الاستعارة ذات قيمة، وكذلك حال المفارقة إن خلت من الشفرة الدالة عليها تصبح كلاماً عادياً.

وقد اعتمد المبدعون العرب الاستعارة في كثير من مؤلفاتهم: «كقول "كثير" يمتدح "عبد العزيز بن مروان":

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً

(1) أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي: دلائل الإعجاز، تح: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 67.

(2) المرجع نفسه، ص 44.

(3) سورة يس: الآية 37.

(4) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ج: 2، ص 264.

غلقت لضحكته رقابُ المال.

غمر الرداء: كثير العطايا والمعروف، استعار الرداء للمعروف لأنه يصون ويستُر عرض صاحبه، كستر الرداء ما يلقي عليه وأضاف إليه الغمر وهو القرينة على عدم إرادة معنى الثوب، لأن الغمر من صفات المال، لا من صفات الثوب»⁽¹⁾، والشاعر يمتدح "عبد العزيز بن مروان" بوصفه بكثير العطاء والجود بالمال، وقد كانت القرينة الدالة على بذل المال والمكافأة به، لفظة الغمر، وهذا يتطلب منا التركيز وإعمال الفكر للوصول للمعنى الحقيقي.

السخرية: وقد جاءت هذه الكلمة في "مختار الصحاح" على النحو الآتي: «سخر منه من باب طرب وسُخِرَ بضمّتين ومسخرًا بوزن مذهب. وحكى "أبو زيد" سخر به وهو أردأ اللغتين. وقال "الأخفش": "سخر منه وبه وضحك منه وبه وهزئ منه وبه"، كل يقال والاسم السخرية بوزن العشرية والسخري بضم السين وكسرهما وقرئ بهما قوله تعالى: (لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)*»⁽²⁾، فهي تحمل طابع الاستهزاء أي؛ فردا أو جماعة يهزؤون بفرد أو أفراد آخرين، وهذا ما نهى عنه الإسلام، فلا يوجد فرد أفضل من فرد، حيث يتم التركيز على عيوب الآخرين والاستهزاء بهم عن طريقها والنظر إليهم من باب الدونية، فيشعر المستهزئ بنوع من التّعالى والتكبر.

لكن إذا تأملنا جيّدًا هذا التعريف فإنه يركز على السخرية من باب الاستهزاء ومن باب الانتقاص من الآخرين، لكن السخرية لها أهدافها وأغراضها التي تريد الوصول إليها، كنشر البسمة على الشّفاء ومعالجة القضايا المختلفة: «تفيد السخرية - اصطلاحا - نسبة عيب إلى شخص أو تفخيم عيب في شخص، بغرض التهذيب والإصلاح ليرأ منه أو من بعضه أو ليخافه إن لم يكن فيه، ولهذا فهي - فضلاً عن كونها أداة للتسلية - وسيلة لخدمة الفرد والمجتمع، لما فيها من تهذيب وتقويم وإصلاح وتطهير، لأنها تتضمن نوعاً من الزجر أو الردع إلا أنها أقل منه وقعاً، ومع هذا فهي تحبب إلينا الحياة لأنها تكسوها بثوب قشيب، وتزود النفوس والعقول والأذواق بثقافة وافرة

(1) السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص 271.

(2) محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، (د.ط)، 1986، ص 122.

*سورة الزخرف: الآية 32.

صادرة عن عقل واع دقيق»⁽¹⁾، السخرية إضافة إلى أنها ترفه وتطرب النفوس؛ تُعالج القضايا المختلفة الموجودة في المجتمع كالظواهر السلبية والمتناقضة، التي ترصدها، وهي تريد الوصول للحقيقة بطريقة فكاهية: «السخرية تخدع لكنها لا تخدع إلا من أجل أن تعلن الحقيقة، أنها فيما تخفي عنا الصدق تكشفه لنا، وتضعنا على الطريق الصحيح»⁽²⁾، فهي لا تقول لنا الحقيقة مباشرة، بل يجب علينا أعمال عقلنا بدقة لفهم ما تريد أن تصل إليه.

هي تميل إلى استخدام الحيلة والتخفي وعدم المباشرة لإبراز الحقائق، ويتساءل عبد القادر المازني عن السخرية ومعناها: «ما هو السُّخر، إذا ذهبنا نعتبره من فنون الأدب؟ إن هذه الوجهة هي -بالداهة- كل ما يُعِينَا [٠٠٠] عما يثيره المضحك أو غير اللائق، من الشعور بالتسلي أو التقرز، على أن تكون الفكاهة عنصراً بارزاً والكلام مُفرغ في قالب أدبي»⁽³⁾، فإبراز الحقيقة بالفكاهة شيء يثير الإحساس بالتسلية.

والسخرية جذورها فلسفية، وباعتبارها فناً قولياً انتقلت إلى ميادين أخرى؛ أي لم تبقى مبحثاً فلسفياً، فقد استخدمها علماء الاجتماع والسياسيون والأدباء، وقد ارتبطت بالأدب وأصبحت تسمى: الأدب الساخر: «الأدب الساخر هو أحد أنواع الأدب الذي يتميز بالجرأة في نقله لصورة الواقع الاجتماعي أو السياسي والتعبير عنها بكل الأجناس الأدبية كالشعر والقصة والمسرحية والمقالة وغيرها»⁴.

كثيراً ما تعطينا السخرية حكمة أو موعظة، وهي في غالب الأحيان تمتزج بروح الدعابة والظرفة، وفي أحيان كثيرة: «تأتي فيها الحكمة من طريق الفكاهة على أسلوب، تمتزج فيه السخرية بالتهكم والعطف والدعابة، وتؤخذ فيه الحكمة مأخذ الجد والمزاح في وقت واحد، لأنها تُشير إلى عواقب الخلط والحماسة إشارة التعقيب بعد مرور المئات من الأمثلة والقرائن والمناسبات، فيتكلم في

(1) راجح العوي: فن السخرية في أدب الجاحظ، من خلال كتاب: الترييع والتدوير و"البخلاء" والحيوان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1989، ص 5.

(2) علي أحمد سعيد (أدونيس): الثابت والمتحول، بحث في الإبداع عند العرب، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط4، 1989، ص 312.

(3) إبراهيم عبد القادر المازني: حصاد الهشيم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2012، ص 249.

(4) محمد صالح شريف العسكري وأعظم بيكدلي: "سخرية الماغوط في العصفور الأحدث"، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة تشرين، سوريا، ع:8، 2012، ص 54.

أمال بعد فوات الضرر وقبل وقوعه على المقصودين بالنصيحة، والتذكير»⁽¹⁾، وهي تحمل الحكمة وتريد تبليغها، وكثيرا ما عاجلت السخرية مواضيع تخص المجتمع كالتقائص والقضايا الأخلاقية في المجتمعات: «والأدب الساخر لا يقصد الإضحاك فقط، بل له أهداف وغايات من أهمها الحفاظ على قيم المجتمع العليا، تكريس السلوك القويم تعديل مجرى اتجاه متطرف... لأن السخرية تهاجم دائما التصلب في الفكر والطبع والسلوك ساعية لجعل طباع المجتمع أكثر مرونة كما أن السخرية تترجم حالة روحية حين تخرف القيم ويسود الزيف، وكثيرون يرون أن السخرية سلاح يحمي الروح من ضعفها كما يرون، فيها تعبيرا عن مأساة هي أكبر من أن يتحملها الضمير الإنساني»⁽²⁾، فهي تهاجم ولا تهادن الزيف والتطرف في قالب فني يميل إلى الطرفة، محاولة الحد من التصرفات اللاأخلاقية.

والسخرية ظاهرة تنتشر عندما تكثر المآسي وتشتد وتتعقد الظروف الاجتماعية والسياسية، فتجد البيئة والمناخ المناسب لها، فتتخذ من الواقع المعاش مادة دسمة للتعبير الصادق عن معاناة يعيشها الأفراد والمجتمع، خاصة إذا كان هناك اضطهاد وتهميش أو ما شابه ذلك من ألوان التعسف والقهر والتسلط: «فالشاعر حين يسخر يتناول بعد ما بين الأشياء والطبيعة ويركض في حلبة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ومثل الكمال من ناحية أخرى، وقد يفعل ذلك جادا أو متفكها مداعبا، أي أنه قد يستوحي إرادته ومشاعره أو يستملي عقله، فإن كانت الأولى فهو هاج منتقم، وإن كانت الثانية فهو ساخر يركب ما بدا له بالدعابة»⁽³⁾، فالمبدع حينما يستخدم السخرية في أعماله الإبداعية، فتكون بهدف النقد والانتقام من الواقع وتناقضاته والقهر الذي يمارسه هذا الواقع تجاه الفرد أو المجتمع، وقد تكون بهدف الطرفة والدعابة والترفيه عن النفس.

وفي التراث العربي ألوان كثيرة من السخرية المعبرة عن واقع اختزلته إبداعات الشعراء والكتاب في مؤلفاتهم، وقد اشتهر "المتنبي" بأشعاره الساخرة، والناقدة لحاكم مصر "كافور الإخشيدى": «ويقول في "كافور" وهو يتظاهر بمدحه: تفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء».

(1) عباس محمود العقاد: بحا الضاحك المضحك، دار الهلال، مصر، (د.ط)، 2008، ص 79.

(2) فوزي معروف: "إطلالة على السخرية عند أبي العلاء المعري"، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ع: (99، 100)، 2005، ص 128.

(3) إبراهيم عبد القادر المازني: حصاد الهشيم، ص 249.

فاللغة هنا تقول شيئاً ثم تأخذ بيدنا بعيداً عما قيل لكي نصل إلى ضده، أما التعبير بـشمس منيرة سوداء، فهو فضلاً عما فيه من سخرية، أشبه بفن الجروتيسك الذي هو غريب ومُفزع»⁽¹⁾، والمتأمل في البيت يقول إن "المتنبى" قصد من خلال ذلك شهرة "كافور" وكثرة ذكره في أوساط المجتمع، حتى أصبح اسمه مشهوراً بين القبائل وفي نفس الوقت يُحيلنا المعنى إلى نقائه من الأخطاء والنقائص والزلات. لكن المتأمل في البيت يلاحظ قرائن تدلّ على معنى آخر مخبوء، وهو السخرية من شخصية كافور أو بالأحرى لون بشرته؛ أي إن المقصود يفضح سواده الشمس المنيرة. ونجد كذلك في قول "حسان بن ثابت" في سخريته وهجائه من طول أجسام "بني عبد المدان" الفارعة وبدانهم:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير⁽²⁾.

وقد سخر الشاعر من البنية الجسمية القوية المتمثلة في الطول والبدانة وقصر عقلهم وتفكيرهم. والسخرية تقترب من المفارقة في البحث عن المعنى الباطن الموجود في ثنايا النص وهما تشتركان كذلك في الرؤية للواقع الذي تحكمه المتناقضات: «فالسخرية سلاح ذو حدين بل إنها أمضى من الأسلحة الهجومية وتعتمد على اختراق الأشياء والنفاذ إلى حقيقتها، وتقوم على المفارقة والتنافر والتناقض»⁽³⁾، فالتناقض سمة مشتركة بين السخرية والمفارقة في تقييم الأشياء وتصورها: «إن العامل الحاسم هنا والرائز الأول للأدب الضاحك هو أسلوب المفارقة؛ نقصد بالمفارقة- كعنصر أول- نوعاً من المفارقة أو المقابلة أو المشابهة أو المواجهة الفعلية أو الذهنية بين طرفين شخصين أو جماعتين أو طبعين أو علاقيتين أو سلوكيين أو عقليتين... أحدهما اعتيادي وهو عادة السوي والآخر استثنائي، عادة زائغ، كي: لا نقول منحرفاً»⁽⁴⁾، فالمفارقة كعنصر شيء موجود في السخرية التي تبني تصوراتها على المفارقات والمتناقضات في عالمها وواقعها الذي يكون في غالب الأحيان مهزوزاً.

(1) نبيلة إبراهيم: فن القص في النظرية والتطبيق، ص 199.

(2) عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 3، بيروت، 1983، ص 270.

(3) يوسف أحمد مروة: نوادر أعلام الفكاهة، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ط 1، 1991، ص 20.

(4) بوعلي ياسين: بيان الحد بين الهزل والجد، دراسة في أدب النكتة، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط 1، 1996، ص 40.

إنّ التراث العربي وإن خلا من لفظة أو مصطلح "المفارقة"، فإنه مليء بألفاظ ومصطلحات أخرى تتوافق إلى حد ما في المجال المفاهيمي مع مصطلح المفارقة؛ لكن بطبيعة الحال إذا نظرنا إلى ظروف وبيئة ونشأة المصطلحات ومفاهيمها سنجد أنها تختلف من بيئة إلى أخرى، لأن هناك ضوابط تحكمها؛ فلا يجب إفراغها من منظومة الأنساق التي تخضت عنها، فالمفارقة في منشأها كانت الفلسفة اليونانية ثم تطوّرت الأبحاث والدراسات حتى أصبحت عنصراً أدبياً فاعلاً. وصارت شائعة الاستعمال في الإبداع الأدبي الغربي بصفة عامة، والمتبّع للتراث العربي سيجد لا محالة في نثره وشعره ما يستحق الدراسة، بمنظور آليّة المفارقة. وإذا كان البلاغيون العرب لم يضعوا مصطلح المفارقة بلفظه، فقد وضعوا وأسسوا لمصطلحات أخرى مشابهة في الجانب المفاهيمي لمفهوم المفارقة، فاعتنوا بالتعريض والتّهمك، والتّشكيك، وتجاهل العارف، وبفضل المثاقفة وتبادل الثقافات والأفكار، تمكن هذا المصطلح من الولوج إلى ساحة النقد والأدب العربيين.

المراجع المعتمدة :

- القران الكريم
- إبراهيم عبد القادر المازني: حصاد الهشيم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2012، ص 249.
- ابن أبي الأصبع المصري: تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، تح: حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (د.ط)، (د.ت)، ص 568.
- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني النحوي: دلائل الإعجاز، تح: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 67.
- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج: 2، ط 5، 1982، ص 15.
- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ج: 1، ط 5، 1981، ص 286.
- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 249، 250.
- أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 3، 1993، ص 327.

- بوعلي ياسين: بيان الحد بين الهزل والجد، دراسة في أدب النكتة، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط1، 1996، ص 40.
- جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد الرحمان البرقوقي، دار الفكر العربي، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 382.
- خالد سليمان: المفارقة والأدب، دراسات في النظرية والتطبيق، دار الشروق للنشر والتوزيع، مصر، ط 1، 1999، ص 22
- راجح العوي: فن السخرية في أدب الجاحظ، من خلال كتاب: الترييع والتدوير و "البخلاء" والحيوان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1989، ص 5.
- السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص 271.
- ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دائرة نهضة مصر للطبع والنشر، مصر، ج:2، ص 123.
- ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تر: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ج: 3، (د.ط)، (د.ت)، ص 56.
- عباس محمود العقاد: بحا الضاحك المضحك، دار الهلال، مصر، (د.ط)، 2008، ص 79.
- عبد الرحمان البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 3، بيروت، 1983، ص 270.
- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ج:1، ط1، 1996، ص 518.
- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ج:2، ط1، 1996، ص 398.
- عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1982، ص 248.
- عبد الفتاح لاشين: البدیع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1999، ص 86.
- علي أحمد سعيد (أدونيس): الثابت والمتحول، بحث في الإتياع والإبداع عند العرب، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط4، 1989، ص 312.

- فوزي معروف: "إطلالة على السخرية عند أبي العلاء المعري"، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ع: (99،100)، 2005، ص 128.
- محمد العبد: المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط2، 2006، ص20.
- محمد العبد: المفارقة القرآنية، ص 22.
- محمد بركات حمدي أبو علي: البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار النشر للطباعة والنشر، الأردن، ط1، 1992، ص37.
- محمد صالح شريف العسكري وأعظم بيكلي: "سخرية الماغوط في العصفور الأحذب"، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة تشرين، سوريا، ع:8، 2012، ص54.
- محمد ناصر الألباني: غاية المرام في تخریج أحاديث الحلال والحرام، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، ط1، 1980، ص215.
- النابغة الجعدي: الديوان، تح: واضح الصمد، دار صادر، لبنان، ط 1، 1998، ص 188.
- ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث، أمل دنقل، سعدي يوسف، ومحمود درويش نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص29.
- نبيلة إبراهيم: فن القص، في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، (د.ط)، (د.ت)، ص209.
- نعمان عبد السميع متولي: المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم، دراسة تطبيقية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، (د.ط)، 2014، ص 69.
- يوسف أحمد مروة: نوادير أعلام الفكاهة، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص 20.